الفصل الرابع
فقهاء المالكية والحياة الإجتماعية في بلاد السودان الغربي

١ - الجذور الإثنية لفقهاء المالكية .

٢ - مكانة المالكية الاجتماعية بين طبقات المجتمع .

٣- دور فقهاء المالكية تجاه العادات والتقاليد الاجتماعية ذات الأصول الوثنية.

٤ - فقهاء المالكية والاحتفالات الدينية .

مَثل الفقهاء الطبقة الدينية المثقفة في المجتمع السوداني ، ومن ثم فقد كانوا موضع نظر الحكام والعامة على السواء ، يسترشدون برأيهم وينتظرون مواقفهم الإصلاحية . كما أنه أُلقي على عاتقهم عبءُ الإصلاحات الاجتماعية ومحاولة الحفاظ على قيم المجتمع المسلم وظلت أعينُ الناس حكاما ومحكومين معقودة عليهم.

ولذا لم يأل فقهاء السودان الغربي جهدا في سبيل إصلاح المجتمع وتقويمه والخروج به من بعض المفاسد التي كانت تخالف الشريعة الإسلامية . خاصة و أنهم اندمجوا في مجتمعهم وعايشوا أجواءه ، فسارعوا إلى القضاء على المفاسد والأعراف الوثنية ، وإن كانت بعض صيحاتهم قد ذهبت سدى في بعض الأحيان ، لكن جهودهم الإصلاحية كانت مثمرة في معظم الأحيان .

وأول ما سنتحدث عنه في هذا الفصل هو الجذور الاثنية لهؤلاء الفقهاء الذين أثروا في مجتمع السودان الغربي .

أولاً الجذور الإثنية لفقهاء المالكية في السودان الغربي :

يُعدّ البحثُ عن الجذور الإثنية لفقهاء المالكية في السودان الغربي من الضروريات المهمة التي يجب بحثها لإماطة اللثام عن الجذور الأولى لأصل هؤلاء الفقهاء. وتعد محاولة رصد الجذور الإثنية للفقهاء المالكية أمراً صعباً بسبب غياب المادة المصدرية والباحثون المختصون في تاريخ تلك المنطقة يجمعون على أن تاريخها خلال العصر الإسلامي هو قبل كل شيء قضية مصادر. ذلك أن قلة وندرة المادة الإخبارية المتوفرة، فضلاً عن فقر مضامينها يمثل عقبة أرهقت الباحثين ودفعت بالكثيرين منهم إلى الاستئناس والاستشهاد دون حرج بمصادر متأخرة جداً، ترجع إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة / الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد ،

والاعتماد علي الرواية الشفوية ، أكثر من ذلك فإنه حتى بالنسبة للقرن الثامن الهجري / الرابع عشر للميلاد الذي يوافق جل معلوماتنا عن المنطقة مع كتابات كل من ابن بطوطة والعمري وابن خلدون فإننا نستطيع بالكاد أن نجيب من خلالها عن بعض الأسئلة التاريخية ذات الطابع الحدثي أو الوقائعي، مثل تحديد فترة حكم ملك أو ضبط سنة حجه أو رصد بعض أعماله وغزواته إضافة إلي بعض الظواهر الاجتماعية .

هذا وقد تعددت الأصول الإثنية لفقهاء المالكية في السودان الغربي إلي عنصر سوداني وبربري وعربي ، وسنتحدث عنها فيما يلي .

الجذور الإثنية لفقهاء المالكية في زمن دولة مالي :

يعد بديهيا القول بتعدد الجذور الإثنية والقبلية لفقهاء المالكية ببلاد السودان الغربي التي تعددت بها الأجناس والأعراق البشرية سواء تلك التي قطنتها منذ البداية ، أو تلك العناصر التي اضطرت إلى الهجرة إليها نتيجة دوافع سياسية عسكرية أو رغبت في الوفود عليها نتيجة ثرائها وتعدد مواردها وأهمية موقعها ومن هذه العناصر: العنصر السوداني .

(١) فقهاء المالكية ذوو الأصوال السودانية في دولة مالي :

كان في بلاد السودان زمن دولة مالي فقهاء مالكيون ذوو أصول سودانية ، ولكنهم كانوا قليلي العدد ، منهم الفقيه القاضي الإمام كاتب موسى[١] ، الذي كان من أئمة المسجد الجامع الكبير المشهورين في تنبكت المشهورين وذكر السعدي أن جميع أئمة هذا الجامع من السودانيين ، وأن آخر الأئمة من السود ، وهو من علماء السودان الذين رحلوا إلى فاس لطلب العلم بأمر من السلطان منسا موسى ، فلما

(١) السعدي : مصدر سابق ، ص ٥٧.

انتهى من دراسته بفاس عاد إلى بلاده مالي، وعاد معه الفقيه عبد الله البلبالى ، وخلف هذا الفقيه القاضي كاتب موسى في الإمامة ، وهو أول رجل أبيض صلى بالناس إماما بالمسجد الجامع الكبير وكان جميع أئمته منذ تأسيسه من السود[١] .

ويلاحظ أن هناك فقهاء مالكية من أصل الونكرى [٢] وكانوا كثيرين ولهم دور بارز في نشر الإسلام في إحدي إمارات الهوسا وهي إمارة كانو [٣] وكان هذا في القرن الثامن الهجري / القرن الرابع عشر الميلادي في عهد الساركن ياجى (٧٥٠-٧٨٧هـ/ ١٣٤٩-١٣٨٥م)حيث جاء وفد إلى كانو من الونقارة قادما من دولة مالي الإسلامية لدعوة أهل كانو إلى الإسلام [٤] .

(٢) فقهاء المالكية ذوو الأصول البربرية في دولة مالي :

كانت العناصر البربرية من العناصر السكانية التي انحدر منها بعض فقهاء المالكية ببلاد السودان الغربي ، إذ لا تعوزنا القرائن الدالة على تعاقب الوفود المغربية المتلاحقة على بلاد السودان الغربي سواء من البربر أو العرب.

---

(١) كعت: مصدر سابق ، ص ١٧٨ ،١٧٩، ١٨٠ .، السعدي : مصدر سابق ، ص ٥٧.

(٢) هو مكان مشهور بكثرة الذهب وجودته منذ الأزمان القديمة ، وهو على الضفة الغربية لنهر السنغال ، وكان تحت حكم دولة مالي عندما جاء هذا الوفد إلى كانو ، أنظر بوفل : الممالك الإسلامية في غربي إفريقية وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء ، ترجمة زاهر رياض ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨م، ص ٢٤٧، ٢٥٠، مهدي رزق الله : حركة التجارة ، ص ٣٩١.

(٣) مدينة كانو من أهم ولايات الهوسا ، ويرجع تاريخها إلى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، المرجع السابق ، ص ٣٨٩. ،وللمزيد أنظر ، حسين مراد : دولة كانو الاسلامية ، تطورها السياسى والحضاري حتى نهاية القرن ٩هـ/ ١٥م، بحث في مجلة الدراسات الافريقية ،عدد رقم ٤٧، عام ١٩٩٧.

(٤) السعدي :مصدر سابق ،ص١٩.

فقد ضمت الصحراء الفاصلة بين السودان والشمال الإفريقي أكبر تجمعات بربرية مثل لواتة،و زناتة ،و صنهاجة وما تبعها من جماعات وعشائر متعددة، بسبب التجارة والطرق التجارية ، وقد كان لصنهاجة الدور الأهم في السيطرة على الطرق التجارية الغربية في الصحراء فصار طبيعيا ان تكون مدن تلك الصحراء مسكونة ببطون تلك القبيلة مثل لمطة و جزولة وجدالة ومداسة وبني وارث[١] وغيرها ، والتي كان لها حضور واضح في القرى والمدن المتاخمة لبلاد السودان مثل صنغانة و إدرار و اودغشت و بوغرات[٢] .

ثم ما لبثت هذه القبائل البربرية أن توغلت جنوبا في بلاد السودان نتيجة عوامل سياسية واقتصادية وحياتية، وهو ما عبر عنه ابن خلدون بقوله : " أبعدوا عن المجالات هناك منذ دهور..فأصحروا في الأرياف ... ومنهم من قطع الرمال إلى بلاد القفر ..فيما يلي كوكو من السودان"[٣] .

وقد حفظت لنا المصادر التاريخية بعض أسماء فقهاء مالكية السودان الغربي من ذوى الأصول المغربية البربرية والعربية خاصة في دولة مالي ، فقد ورد على بلاد السودان الغربي فقهاء من بلاد المغرب كونوا جاليات ما لبث أن كتب لها الاستقرار بعد ذلك . ومن المرجح أن الفقهاء والقضاة ورجال الأدب قد قدموا إلى السودان الغربي بهدف التجارة، لأنه من الصعب التسليم بأنهم كانوا يقتصرون في نشاطهم على الوظائف الرسمية. فمهما كانت الرواتب التي تدرّها عليهم تلك الوظائف، فإنهم بلا شك كانوا يمثلون إلى ممارسة الأعمال التجارية الرابحة التي تفسر وحدها عبورهم للصحراء والإقامة في بلاد بعيدة مثل السودان. فقد كانوا وكلاء للشركات الموجودة بالمغرب ، أو وسطاء بين المغاربة والسودانيين ، حيث كان الجمْعَ بين التجارة والعِلْم هو

(١) البكري : المسالك والممالك ، جـ١، ص ٢٥٠.

(٢) المصدر السابق :جـ٢، ص ٣٥٩، العمري : مصدر سابق ، جـ٤، ص ٦٠.

(٣) ابن خلدون :مصدر سابق ، ص١٧٨٧ ،١٧٨٨.

إحدى خصائص الحضارة الإسلامية في السودان الغربي في شتى عصورها[١] بيد أن فريقا من هؤلاء التجار الفقهاء قد فضل الاستقرار في بلاد السودان ، يدل علي هذا رواية العمري التي تحدث فيها عن قدوم بعض الفقهاء المالكية إلى بلاد السودان كتجار ثم ما لبثوا إن استوطنوا هذه البلاد[٢].

وكان من أهم العوامل وراء استقرارهم هو حسن المعاملة التي لاقوها من قبل حكام هذه البلاد، فهذا ابن بطوطة يؤكد أن إمبراطور مالي منسا موسى "كان يحب البيضان ، ويحسن إليهم" و"هو الذي أعطى لأبي إسحاق الساحلي في يوم واحد أربعة آلاف مثقال[٣] وأعطى لمدرك ابن فقوص ثلاثة آلاف مثقال في يوم واحد "[٤] وقد استمرت هذه السياسة سارية المفعول خلال القرنين التاليين حسب شهادة الحسن الوزان[٥].

كذلك تقرب الفقهاء المغاربة التجار من الدوائر الحاكمة عن طريق الزواج والارتباطات العائلية ، فقد كان كبير جماعة البيضان محمد بن الفقيه الجزولي متزوجاً ببنت عم السلطان[٦] منسا سليمان ،ونجد لاحقاً أن ملك تنبكت[٧] زوج اثنتين من بناته لأخوين تاجرين مغربيين لفقههما وعلمهما وغناهما[١].

---

(١) A. El Alaoui, *Le Maghreb et le commerce transsaharien (milieu du milieu du XIVè s.)*, Thése de 3ème cycle, Bordeaux, ١٩٨٣, pp. ١٠٨-١٠٩.

(٢) العمري : مسالك الإبصار ، جـ٤، ص٥٩، ٦٠ ، حيث يقول إن أبا عثمان سعيد الدكالي «سكن مدينة يتي (عاصمة إمبراطورية مالي) خمساً وثلاثين سنة.

(٣) ابن بطوطة : رحلته ، ص ٦٧٢.

(٤) المصدر السابق والصفحة .

(٥) الحسن الوزان: وصف إفريقيا ، ص٥٣٩، بمدينة مالي "يوجد عدد كثير من الصناع والتجار المقيمين والطارئين الذين يعيرهم الملك عناية أكثر من غيرهم" .

(٦) ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص٦٦٥.

(٧) لم يكن هناك ملك في تنبكت بل نائب عن إمبراطور جاو ، والذي يلقب بتنبكت كوى ، أما الذي

وكان حرص السلطة في السودان الغربي على تعاليم الإسلام ونشرها بين أفراد الرعية وراء استقطاب ثلة من فقهاء المالكية المغاربة إلى بلادهم، فقد اهتم سلاطين مالي بنشر العلوم والثقافة عن طريق استقدام عدد كبير من العلماء إلى بلادهم فامتلأت بلادهم بفقهاء المالكية من السود والبيض على السواء . وقد ترك لنا ابن بطوطة شهادة حيّة عن مدى تغلغل الإسلام في إمبراطورية مالي[٢]. ويبرز العمري من جانبه تديّن منسا موسى وإسهامه في نشر الإسلام ببلاده. فعند حديثه عن منسا سليمان، يقول إن أخاه منسا موسى بني المساجد والجوامع والمآذن وأقام ببلده الجمع والجماعات والأذان، و"جلب إلى بلاده الفقهاء علي مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وبقي بها سلطان المسلمين، وتفقه في الدين"[٣] .

كما قدم عدد من الفقهاء المغاربة إلى مالي، فبحسب شهادة ابن بطوطة كانت مالي محلة خاصة للبيض[٤]من الفقهاء والعلماء والتجار المغاربة والمصريين ، ومنهم الشيخ الثقة أبو عباس سعيد الدكالى الذي أقام بمملكة مالي مدة طويلة ، وكان من بين مصادر العمري عن مالي ، ولكننا لا نعلم متى وأين التقيا،ولكن يظهر من خلال اللقب الذي يمنحه العمري لسعيد الدكالى أن هذا الأخير كان يشغل إحدى الخطط الدينية بعاصمة مالي[٥] .

كان موجودا أثناء مرور حسن الوزان فكان يدعى عمر بن محمد الندى المتوفى عام(٩٢٠هـ/ ١٥٢١م) ، وقد نصبه أسكيا الحاج محمد عام (٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م)الحسن الوزان : مصدر سابق ، ص٥٤٠.

(١) المصدر السابق والصفحة .

(٢) ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص ٦٦٩، ٦٧٢،أحمد الشكرى : مصدر سابق ، ص١٧٨.

(٣) العمري : مصدر سابق ، ص٧١.

(٤) السعدي : مصدر سابق ، ص٦٧٤.

(٥) ابن خلدون : مصدر سابق ، ص ١٨٩٦.

والقاضي الثقة أبو عبد الله محمد بن وانسول ، وهو من أهل سجلماسة ، دخل مدينة جاو وأستقر بها عدة سنوات ، استعمله خلالها أهل المدينة في خطة القضاء، وقد عاصر بن خلدون وصادقه وأمده بالكثير من المعلومات عن إمبراطورية مالي[٣] . ويغلب على الظن أن لقاءهما كان بالقاهرة خلال العقد الأخير من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي كما ذكر ابن بطوطة الفقيه محمد الفيلالى إمام مسجد البيضان[١] .

(٣) فقهاء المالكية ذوو الجذور العربية في دولة مالي :

بالإضافة إلي الأصول البربرية والسودانية عرفت مالي بعض الفقهاء العرب منهم الفقيه عبد الرحمن التميمي الذي قدم مع السلطان منسا موسى أثناء رحله حجه ، وذهب إلي فاس وأخذ الفقه المالكي[٢] وعاد إلي تنبكت وأصبح من كبار فقهاء هذه المدينة .

وهكذا تعددت الجذور الاثنية لفقهاء المالكية في السودان الغربي زمن دولة مالي الإسلامية ، مابين عناصر سودانية وبربرية وعربية وإن كان العنصر الغالب لفقهاء البربر.

الجذور الإثنية لفقهاء المالكية في زمن دولة صُنغي :

تعددت أيضا الجذور الاثنية لفقهاء المالكية في بلاد السودان الغربي زمن دولة صُنغي ويأتي العنصر السوداني هو الأبرز بين الجذور الإثنية الاخري فقد سمح تقادم الزمن في لظهور عائلات سودانية نبغت في مجال الفقه .

---

(١) ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص٦٧٧.

(٢) الاروانى : مصدر سابق ،ص٩٣، ٩٤.

(١) فقهاء المالكية ذوو الأصول السودانية في دولة صُنغي :

هناك عائلة سودانية كبيرة أنجبت العديد من الفقهاء المالكية ، وبالرغم من أن السعدي يُرجع أصل هذه العائلة إلى أحدي قبائل البربر الكبرى وهى قبائل صنهاجة الصحراوية[١] ، إلا أن الباحثة تعتبر هذه الأسرة التي أنجبت كماً هائلاً من الفقهاء أسرة سودانية لقدم هجرتها إلي هناك ، بالإضافة إلي تلقيهم العلم والفقه في موطنهم وهو السودان الغربي خاصة في مدينة تنبكت .

وحسبما تذكر المصادر أن الجد الأكبر لهذه العائلة هو محمد بن عمر أقيت[٢] الذي تنسب إليه وإلي سلالته أعظم العلماء الذين كان لهم أثر بارز في الحياة العلمية والثقافية في المراكز العلمية بتنبكت، وهم يمثلون كذلك العنصر الغالب في الحركة الفكرية والثقافية في السودان الغربي كله.

المهم أن محمد أقيت وهو جد أسرة أقيت هاجر من موطنه الإصلى بلاد ماسنة إلى بلدة بير (ولاتة) بسبب بغضة للفولانيين الذين كانوا يجاورونه في السكن ، واستقر محمد بن عمر أقيت في تنبكت ثم حدثت مصاهرة بين أسرته وأسرة أندغ محمد[٣] الذي كان قاضيا لتنبكت ، كما كان لأسرته نفوذ وشهرة في هذه المدينة ، وبهذه المصاهرة احتلت أسرة أقيت فيما بعد مكانة كبيرة[١] .

---

(١) السعدي : مصدر سابق ،ص٣٥، ٣٦.

(٢) هو "محمد أقيت بن عمر بن على بن يحيى بن كدالة بن بكى بن نيق بن لف بن يحيى بن تشت بن تنفر بن حيراى بن أكبر بن أبى بكر بن عمر الصنهاجى الماسنى ، أنظر السعدي : مصدر سابق ، ص ٣٥، ٣٦،البرتلى : مصدر سابق ، ص٣١.

(٣) هو عبد الله أندغم حمد بن محمد بن عثمان بن محمد بن نوح " معدن العلم والصلاح ومنة تناسل كثير من شيوخ العلم والصلاح ومنهم من جهة الآباء ومنهم من جهة الأمهات ومنهم من جهتيهما معا. .فهو عالم جليل قاضى المسلمين ، قال عنة أحمد بابا رحمه الله هو أول من خدم العلم من أجداده فيما أعلم وهو جد جدي لأمه أبو أم جدي أنظر ، السعدي : مصدر سابق ، ص ٢٨، البرتلى : مصدر

وقد انحدر من أسرة أقيت أشهر علماء الثقافة الإسلامية واللغة العربية ، منهم أحمد بن عمر بن محمد أقيت ، وهو والد جد الشيخ أحمد بابا التنبكتى ، وكان عالما صالحا عاش في بداية الثلث الثاني من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي[٢] ، والفقيه المختار النحوي بن عمر بن أحمد وقد لقب بالنحوي لبراعته في هذا الفن ، و الفقيه العالم عبد الرحمن بن عمر بن أحمد أخو الفقيه المختار النحوي والذي كان من الفقهاء المتخصصين في تدريس كتاب التهذيب للبرادعى ، وكذلك الفقيه أحمد بري بن أحمد بن أندغ محمد أبو العباس وهو من شيوخ العلم في عهد ازدهار الثقافة الإسلامية في دولة صنغى[٣]

وهناك الكثير من أبناء هذه الأسرة الذين نبغوا في علم الفقه أشرنا إليهم أثناء الحديث عن الخطط الدينية التي تولوها في الفصل الثالث وأيضا في الفصل الخامس أثناء الحديث عن جهودهم العلمية ، ونكتفي هنا بذكر بعض أفراد من هذه الأسرة الذين نبغوا في الفقه المالكي وليس جميعهم .

ومن العائلات السودانية التي نبغت في الفقه المالكي في السودان الغربي وهي من أصل سوداني عائلة بغيغ وهي أصلا من جني ، ويأتي علي رأس هذه العائلة الفقيه القاضي الصالح محمود بن أبى بكر بغيع جنوى بلدا ومسكنا ونكرى أصلا[٤]

سابق ص١١٢.

(١) من المعروف أن الأم والخال في جنوب الصحراء يلعبان دورا مهمابالنسبة للأولاد وتعليمهم ، أنظر عبد العزيز العلوي : التأثيرات الدينية والفكرية المغربية على السودان الغربي الوسيط ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، المملكة المغربية فاس ١٩٩٩م ، ص٤٠٥.

(٢) أحمد بابا : مصدر سابق ، ص ١٣٧، ١٣٨.

(٣) السعدي: مصدر سابق ص٢٩، البرتلى : مصدر سابق ، ص٢٨.

(٤) أحمد بابا :مصدر سابق ، ص٣٤١، السعدي : مصدر سابق ، ص١٩.

وكان من نسله ابنه الفقيه محمد بن محمود بن أبى بكر الونكرى التنبكتى الذي عرف بأسم محمد بيغيغ[١] .

وهناك عدد من الفقهاء الونكريين منهم الفقيه فودي محمد سانوا الونكرى[٢] الذي كان فقيها عالما عابدا صالحا وكان قد قدم إلى مدينة جني في أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي ، وكان أول سكنه في قرية قريبة من مدينة جني تسمى طورا ، وكان يأتي من هذه القرية إلى مدينة جني في كل جمعة لأداء صلاة الجمعة بمسجدها الجامع حتى أحبه السلطان وأهالي جني وتآلفت قلوبهم معه ، عند ذلك طلب منه سلطان جني أن يسكن جني بدلا من قرية طورا فقبل الطلب. ومن فقهاء الونكريين أيضا الفقيه القاضي محمد بنب كنات الذي كان فقيها عالما جليلا ونكرى الأصل تولى القضاء بعد وفاة القاضي مؤدب بكر تورى وهو آخر قضاة دولة السودانيين[٣].

والفقيه مورو محمد هوكار وهو من مور كير ، وفقهاؤها جميعهم من أصل واحد، ومن ذريته مور صادق بن الفقيه مورم عمك بن الفقيه مورو هوكار[٤] وجميع من يلقب بمي كميدع ، ومي ننك ، وميهو ، وميكع ، وميفر ، وميتاص وميغى ، ومي يور ، وميزع ، واسم بلدهم ير ، وكل من كانوا في هذا الإقليم من أصل مغربي من وعكري و ونكر[٥] ، كذلك الفقيه الفع صالح جور الذي كان وعكري الأصل وهو جد أهل توتل[٦] .

---

(١) البرتلى : مصدر سابق ، ص١٣٣.

(٢) السعدي : مصدر سابق ، ص١٦.

(٣) المصدر السابق ، ص ١٩.

(٤) المصدر السابق ،ص٦٣.

(٥) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ٤٨.

(٦) السعدي : مصدر سابق ،ص٦٣.

وكان الفقيه القاضي محمود كعت بن الحاج المتوكل كعت الكرمنى دارا والتنبكتى مسكنا ، والوعكري أصلا قد ولد في منطقة كورما غرب جاو(٨٧٣ ـ١٠٠٢هـ/ ١٤٦٨ـ١٥٩٣م) وعاصر أمير المؤمنين الحاج أسكيا محمد الذي حكم صُنغى من(٨٩٩ـ٩٣٥هـ/ ١٤٩٣ / ١٥٢٨م) وسكن تنبكت ، وكان للقاضي الفقيه محمود كعت أولاد منهم القاضي إسماعيل بن محمود كعت[١] و الفقيه يوسف بن محمود كعت ، والفقيه محمد الأمين بن محمود كعت ، وحفيده ابن المختار وهو ابن بنت القاضي محمود كعت صاحب التاريخ ، وهؤلاء من أسرة كعت وهم أعلام المؤرخين السودانيين[٢].

وهناك أيضاً الفقيه مسربوب الزغرانى التنبكتى الذي ينسب إلى قبيلة الزغرانيين في غرب السودان الغربي ، وكان رحمه الله عالما فاضلا خيرا صالحا نادر المثال في قبيلته ، وقد اشتهر بالعلم والصلاح على الرغم من أنه ينحدر من قبيلة الزغران التي يصفها السعدي والتواتى بأنها لاتعرف بالصلاح ولا بحسن الإسلام[٣] .كما ذكرت المصادر الفقيه السوداني الأصل وهو القاضي أحمد ترف بن القاضي عمر ترف وتقول أنه جنوى الأصل والبلد ، وكان خطيبا ثم صار إمام الجامع ثم قاضيا فجمع المراتب الثلاث[٤] .

(٢)فقهاء المالكية ذوو الأصول البربرية في دولة صنغي :

أما في دولة صُنغى فتذكر المصادر الفقيه الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلى الذي ولد بمدينه تلمسان عام ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م وهو من أسرة عريقة ،فقد تربى في فترة

---

(١) محمود كعت :مصدر سابق ، ص ٧٥، ١١٦، أحمد بابا : مصدر سابق ، ص٥٧٨، السعدي : مصدر سابق ،ص٣٩.

(٢) محمود كعت : مصدر سابق ، ص١٤٢.

(٣) السعدي : مصدر سابق ، ص٥١،٥٢ ، البرتلى : مصدر سابق ،ص١٤٧.

(٤) نفس المصدر : ص ١٩ ،٢٠.

شبابه في توات في الصحراء ، وانتقل إلى فاس بهدف الدراسة ، ثم ارتحل إلى السودان حيث دخل بلاد أهير و تكدا و سيقو و كاشنا ثم رحل إلى جاو واتصل فيها بالاسكيا الحاج محمد الكبير ، فتذاكر معه في جملة من المسائل الفقهية ، وألف في السودان عشرات الكتب والشروح أضاءت الحياة العلمية في السودان الغربي[١]، وكانت له مع علماء فاس مسائل فقهية أخذت شكل الخلاف ، كما اشتهر بعدائه ليهود توات[٢] ، والفقيه عبد الله البلبالى الذي قدم مع كاتب السلطان منسا موسى من مدينة فاس[٣] .

كما كان الفقيه العاقب بن عبد الله الانصمنى المسوفى الذي كان حيا في (٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م) من أهل تكدا وهي بلدة قريبة من بلاد السودان عمرتها صنهاجة[٤] ،وأبو القاسم التواتى الذي جاء مع جماعة من علماء وشرفاء تافيلات بالمغرب ، وابتنى دارا بالقرب من المسجد الجامع بتنبكت ، وظل هناك الى أن توفى بتنبكت عام(٩٢٢هـ/ ١٥١٦م) وكان بتلك المدينة خمسون عالما من توات[٥] .

وكذلك الفقيه عبد الرحمن بن على بن احمد القصرى الفاسى الذي توفى عام (٩٥٦هـ/ ١٥٤٩م) والذي ولد بمدينة القصر الصغير على البحر المتوسط ، و أخذ علم الحديث بمصر ثم ذهب لبلاد السودان[٦] .

---

(١) أحمد بابا : نيل الابتهاج ، ص٥٧٦، ٥٧٧.

(٢) المغيلى "محمد عبد الكريم المغيلى " :مصباح الأرواح في أصول الفلاح ، تقديم وتحقيق رابح بونار ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ١٩٦٨م، ص١٧ ، مطير سعد غيث أحمد : الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي ،لبنان ، دار المدار الإسلامي ، ط١، ٢٠٠٤م، ص ٢٦٩.

(٣) ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص٦٤٤.

(٤) أحمد بابا : مصدر سابق ، ص٣٥٣،السعدي : مصدر سابق ، ص٤١، محمد مخلوف : مصدر سابق ، ص٤٠٣.

(٥) السعدي : مصدر سابق ، ص٣٦ البرتلى :مصدر سابق ، ص١٥٥.

(٦) السعدي : نفس المصدر والصفحة ، البرتلى :نفس المصدر والصفحة .

أما الفقيه مور كنكى فقد رحل من قريته إلى كابرا لتلقى العلم من علمائها ، ثم رحل إلى جني بعد أن تلقى تعليمه في كابرا ، وذلك في منتصف القرن التاسع الهجري ، و ظل في جني حتى علم أن هناك من لا يرغب في وجوده فأرتحل عنها ، وكان سبب رحيله من جني أنه كان يصلى صلاة الصبح مع جماعة ذات يوم فسمع رجلاً بجانبه يقول في سجوده : "اللهم إن مورمغ كنكى ضيق علينا البلد أرحنا منه " فلما سلم قال يا رب لا أعرف مضرتي للناس حتى يُدعى علىّ فأرتحل يؤمئذ من جني إلى كونا فنزل فيها ، وسمع بخبرة أهل جنج فبعثوا له القارب وارتحل فسكن في جنج إلى أن توفى بها[١] .

ومن الفقهاء ذوو الأصول البربرية أيضاً الفقيه محمد بن أحمد بن أبى محمد التازختى الذي عرف بأيد أحمد المتوفى عام (٩٦٠هـ/ ١٥٢٩م)[٢] ، والفقيه على الجزولى الذي ولاه الإمامة القاضي محمود[٣] ، والفقيه فياض الغدامسى ، وهو الذي صلى على أبى القاسم التواتى[٤] ، والفقيه محمد تل الشريف وهو جدّ أهل ذكر وينسبونه إلى بني مداس والذي حج مع الاسكيا محمد الذي كان يحترمه احتراماً عظيما[٥] .والفقيه صديق بن محمد تعلى الكابرى الأصل المتوفى عام (٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م)[٦] ، والجنوى المولد الذي كان عالما فقيها فاضلا خيراً صالحا وهو من علماء بلدة جنج القريبة من تنبكت والمجاورة لها ، وقد جاء إلى تنبكت لينهل من منابع العلم والمعرفة والثقافة وتوطن بها ، رغم أنه كان صاحب مدرسة

---

(١) نفس المصدر : ص١٦.

(٢) السعدي: مصدر سابق،ص ٦٠، البرتلى:مصدر سابق ، ص ١٩٦، ١٩٧.

(٣) السعدي: مصدر سابق ،ص٥٨، البرتلى : مصدر سابق ، ص٦٩.

(٤) السعدي :مصدر سابق ، ص٢٠،١٩.

(٥) محمود كعت : مصدر سابق ، ص٨٢.

(٦) ـ البرتلى: مصدر سابق ، ص ١٥٥.

في بلدته جنج وفيها طلبته النجباء.[١] .

كما وجدت عائلات مغربية بالسودان الغربي ، وهى عائلة تعلى ، وعلى رأسها إمام المسجد الكبير محمد بن الصديق[٢] ،وعائلة الخضر[٣] وكان جدها الأول الذي قدم من فاس كاتبا خاصا لسني على ، والعائلة الثالثة هى العائلة التواتية[٤] ، والرابعة هي عائلة القصرى[٥] ، وأخيرا عائلة الفيلالى في تنبكت و ديينى و جاو[٦].

(٣) فقهاء المالكية ذوو الجذور العربية في دولة صنغي:

وتتحدث المصادر عن الفقيه يحيى التادلسى (٧) المتوفى عام (٨٦٦هـ/ ١٤٦١م) والذي كان قد قدم إلى تنبكت زمن ولاية محمد نض بين عامي(٨٣٧ـ ٨٧٦هـ/ ١٤٣٣ـ١٤٧١م) وتلقاه محمد نض عند قدومه بالترحاب وأكرمه غاية الإكرام وبني له مسجدا وجعله إماماً له، وعرف هذا المسجد بمسجد سيدي يحيى. والفقيه أحمد الصقلي(٨) الذي جاء إلى دولة صنغى فى عام (٩٢٥هـ/ ١٥١٩م) بناء

---

(١) السعدي : مصدر سابق ، ص٦١.

(٢) المصدر السابق ،ص٦٨.

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٩، ٦٠.

(٤) .هو :"عبد الرحمن بن على بن أحمد القصرى ثم الفاسى السفياتى " أنظر أحمد بابا : مصدر سابق ،ص٢٦٤.

(٥) السعدي : مصدر سابق ، ص٢٨.

(٦) المصدر السابق : ص٣٠٨.

(٧) يحيى بن عبد الرحيم بن عبد الله بن عبد الرحمن الثعلبي بن يحيى اليكاء بن أبى الحسن على بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن قصي بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطال بن أحمد بن عيسى بن محمد بن الحسن بن على بن أبى طالب رضي الله عنه أنظر السعدي : مصدر سابق ص ٥٠.

(٨) هو أحمد بن عبد الرحمن بن إدريس بن أبى يعزى بن حسن بن إبراهيم بن عبد الله بن عيسى بن إبراهيم بن عبد الرحمن عرف بزين العابدين بن الحسن بن على بن أبى طالب وأمة فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، أنظر محمود كعت : مصدر سابق ، ص ١٩.

على طلب الأسكيا محمد الكبير أثناء رحلة حجة من شريف مكة ليتبرك به(١).

وهكذا تعددت أيضا الجذور الإثنية لفقهاء المالكية في دولة صُنغي مابين عناصر سودانية وبربرية وعربية .

ثانياً: المكانة الاجتماعية لفقهاء المالكية بين طبقات المجتمع :

احتل فقهاء المالكية في بلاد السودان الغربي مكانة اجتماعية مهمة بين طبقات المجتمع السوداني الذي تعددت طبقاته ، وقد تعددت العوامل المؤثرة في التكوين الطبقي والاجتماعي لمجتمع دولتي مالي وُصنغي ، من هذه العوامل النسب الشريف ، فقد تمتعت الأسر الشريفة بمكانة مرموقة حيث كانت تعفى من الضرائب ، ويمنح لها مظاهر التوقير والاحترام والتقدير، وتقدم أسرة الشريف الحسنى خير دليل على ذلك ، ويدل عليه أيضاً أمر أسكيا محمد بن داوود بإعفاء عبيده من جميع وظائف السلطنة الوضيعة احتراماً وتقديراً لمقام سيدهم الشريف(٢) .

وقد ربط ابن خلدون(٣) أصالة النسب والشرف بمعيار آخر ألا وهو المعيار الأخلاقي "فمن استحكمت فيه صنعة الرذائل بأي وجه كان ، وفسد خلق الخير فيه لم ينفع ذكاء نسبه ولا طيب منبته " ، وعلى هذا الأساس الأخلاقي تمكن البعض من

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٦.

(٢) محمود كعت : مصدر سابق ، ص١٨ ، ١٩ ، وكذلك عندما حدث أن أسكيا داود قتل أحد الأشراف خطأ عام (٩٩٩هـ/ ١٥٨٣م)، فندم وأخذ يبكي أياماً ، وعزم على صوم الدهر ، وعندما جمع العلماء واستفتاهم في الاستغفار لهذا الذنب العظيم قالوا له : "أن تفزع إلى رسول الله ﷺ وتهرب وتدخل في حرمته وتستشفع به ﷺ ، وإذا لم تقدر فلك دية في الشرع" وقدروا الدية بثلاثين نفساً يعطيها لأخ القتيل ، ولما سأل أخ القتيل عما يفضله من الأموال اختار الأرض فأعطاه ثلاث ضياع بعبيدها ، أنظر محمود كعت : مصدر سابق ص١١٦، ١١٧.

(٣) ابن خلدون :مقدمة أبن خلدون ، ص١٧٤، ١٧٨، ١٧٩.

احتلال مكانة اجتماعية حسنة[١] حيث احتلت كثير من العائلات وضعية طبقية متميزة عن طريق النسب والوراثة و الأخلاق ، نذكر من بينها أسرة الشريف أحمد الصقلي الذي ينتهي نسبه إلى الحسن بن على ابن أبى طالب كرم الله وجهه وأمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ[٢].

ومن العوامل المؤثرة في التكوين الطبقي لمجتمع دولتي مالي وصُنغى أيضا عامل القرابة ، وهو ما عبر عنه ابن خلدون بالعصبية ، ومما لاشك فيه أن هذا العنصر قد اكتسب وزناً في صياغة البناء الطبقي الذي من أهدافه السيادة على دفة الحكم ، وجعل السلطة حكرا على أقاربها ، حيث كانت الحاشية والأمراء النبلاء وقواد الفرق العسكرية و حكام الأقاليم من بين أقربائه المخلصين[٣] .

العامل الثالث المؤثر في التكوين الطبقي المذهب الديني للدولة وهو المذهب المالكي ، فقد لعب دوراً جوهرياً في تحديد الوضعية الاجتماعية لكبار فقهاء هذا المذهب ، إذ أصبح الفقه المالكي مطية لنيل المناصب الدينية العليا و ارتفاع المكانة الاجتماعية ، وللتدليل على أهميه العلم والمذهب المالكي في ارتقاء الهرم الاجتماعي نورد نصا مهماً، عبارة عن وصية من أب لابنه يقول فيها : "العلم شئ حسن ، فكن له ذا طلب ، و ابدأه بالنحو ، وخذ من بعده في الأدب ، فأن أردت أن ترى جاها ونيل مكتسب ، فافهم أصول مالك ، واحفظ فروع المذهب ، فإن قول مالك سلسلة من ذهب ، واعمل بما حفظته تحظى بأعلى الرتب"[٤] وخير دليل على أن الدراسة و

---

(١) محمود مكي : "وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين "مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلدان ٧ ، ٨ ،عام ١٩٥٩-١٩٦٠، ص١٨٣، ١٨٢.

(٢) محمود كعت : مصدر سابق ، ص١٩.

(٣) المصدر سابق ، ص٤٦ ، عبد القادر زيادية : مرجع سابق ، ص٤٥.

(٤) ابن قنفد :أنس الفقير وعز الحقير ، تحقيق محمد الفاسى وأدولف فور ، الرباط ، المركز الجامعي للبحث العلمي ١٩٦٥، ص١٠٧.

تحصيل العلم قد أتاحا للبعض فرصة الارتقاء الاجتماعي، هوعائلة أقيت وعائلة بيغيغ نهض بهم علمهم حتى صاروا من أعلام البلاد وأبرزهم مكانة ، وتقلدوا بعلمهم أرفع المناصب في الدولة[1] .

ومن هذا يتضح أن مجتمع دولتي مالي وصُنغى مجتمع طبقي ،حيث ارتكزت فيه الطبقية علي جملة من العوامل التي أعطت لها خصوصيتها من أهمها السلطة والجاه ، وشرف النسب ، والعلم ، والقرابة . كما لعب المذهب المالكي دوراً في رفعة مكانة فقهاء هذا المذهب أيا كانت طبقاتهم التي ينتسبون لها .

ومن هنا يمكننا تقسيم المجتمع في دولتي مالي وصُنغى آنذاك إلى طبقتين رئيسيتين هما : طبقة الخاصة ، و طبقة العامة ، حيث اندرج تحت كل طبقة مستويات مختلفة وفئات متباينة وسنحاول فيما يلي أن نعرض لكل طبقة لنتعرف على المكانة الاجتماعية لفقهاء المالكية بين طبقات المجتمع المختلفة .

١ـ مكانة فقهاء المالكية لدي طبقة الخاصة :

تكونت هذه الطبقة أصلا من أفراد الأسرة الحاكمة والحاشية وقادة الجند ورجال الدولة وحكام الأقاليم ، وفقهاء السلطة والأعيان ، فضلا عن بعض البيوتات الوجيهة المرتبطة بجهاز السلطة ، وكانت هذه الطبقة هي أقل الفئات عدداً ، ولكنها أكثرها سطوة وجاهاً ، وغني وثراء ، وكان قمة هذة الطبقة بلاط دولة مالي الإسلامية الذى كان مليئا بالفقهاء ، وقد حظي هؤلاء العلماء الفقهاء بمنزلة كبيرة لدى حكام مالي حيث كانوا من المقربين إليهم ، فهاهو الفقيه أبو عباس الدكالى[2]،

(١) السعدي : مصدر سابق ، ص٣٠٨.

(٢) نسبة إلى مدينة دكالة وهى :" تعرف كذلك باسم "يمويمن" وتقع بين مدينة مراكش وبين البحر المحيط، وهى مدينة كبيرة وهى نهاية ففي العمارة ، أنظر : الحميري : مصدر سابق ، ص ٦١٩.

الذي كان معاصرا لمنسا موسى وكان يتولى خطة القضاء و يتمتع هذا الفقيه بمقام واحترام كبيرين[١] .

كما كان هناك أيضاً الفقيه القاضي أنفارقم الذي كانت له علاقة خاصة مع منسا موسى والذي كان يوقره ويحترمه كثيرا ، حيث كان هو الوحيد الذي يصافحه[٢].بالاضافة إلى الفقهاء الذين كانوا موجودين في دولة مالي ، ويذكر لنا ابن بطوطة أن مجلس منسا سليمان كان يحضره الخطيب والقاضي ، وكان هذان ضمن حاشيته المقربين[٣] . ومما يدل على ارتفاع مكانة الفقهاء لدى حكام مالي ما حدث في بلاط منسا سليمان ، حيث قامت زوجته (قسا) بالتآمر عليه مع ابن عمه ، وبعد اكتشاف أمرهما عزم منسا سليمان على معاقبه زوجته ، فهربت تلك الزوجة إلى دار الخطيب بعد عدم تمكنها من دخول المسجد . فلم يلحق بها أي أذي بسبب دخولها دار الخطيب ، مما يؤكد ارتفاع مكانة هؤلاء الفقهاء[٤] .

وقد ارتفعت مكانة فقهاء المالكية في دولة صُنغي لدي أفراد هذه الطبقة ، فقد اشتهر أسكيا محمد بحسن سياسته مع العلماء والقضاة والتي تتلخص في الإحسان إليهم بكثرة العطاء[٥] . كما أنه كان يقدر العلم وأهله ، فإذا دخلوا عليه أجلسهم على سريره وقربهم ، وأمر بألايقف أحد إلا للعلماء والحجاج ، ولا يأكل معه إلا العلماء والشرفاء وأولادهم[٦]، وقد جعل ذلك قاعدة لمن أتوا من بعده ، ونرى هذا جلياً من

---

(١) ابن بطوطة : رحلته، ص٦٥٥.

(٢) يعتبر هذا حدثا عظيما جدا ، حيث كانت العادة هناك في السلام على ملوك السودان يكون بواسطة رمى التراب ، أو الدقيق على رأس الداخل عليه إظهاراً للتذلل أو الوقوع على الأرض والسجود له ، أنظر محمود كعت : مصدر سابق ،ص ٣٥.

(٣) ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص٦٧٧.

(٤) المصدر السابق : ص٦٧٠، ٦٧١.

(٥) محمود كعت :مصدر سابق ، ص٧٢ ، ٧٣.

(٦) نفس المصدر والصفحة.

خلال عطاء الأسكيا محمد للقاضي المالكي محمود كعت(٨٧٣-١٠٠٢هـ / ١٤٦٨-١٥٩٣م) [١] ، فقد اشتهر أسكيا محمد بسياسته هذه مع العلماء والقضاة كافة والتي تتلخص في االتقرب إليهم بكثرة العطاء[٢].

وثمة كثير من النصوص تبين ارتفاع مكانة فقهاء المالكية الاجتماعية لدى الأساكي ، يؤكد ذلك ماحظوا به من عطف وتقدير من جانب الاساكى ،ويتجلى ذلك من خلال التوصيات التي أكدت على وجوب تعظيمهم ، فضلا عما حازوه من هبات وإنعامات جعلت ابن خلدون يخلص إلى القول بأن "لحملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة[٣] "وكانت خطة القضاء أعظم الخطط عند الخاصة والعامة ، كما كانت سمة الفقيه عندهم جليلة ،ولا مراء في أن الثروات الواسعة إلى جانب الجاه الذي احتموا به أعطاهم مكانه اجتماعية ونفوذا قل نظيره ، حتى إن بعضهم صاروا يدخلون المدن دخولا رسميا يشبه دخول الأمراء ، ومن ذلك ما حدث مع أسكيا داوود الذي وصفته بعض المصادر بأنه كان شديد التعظيم والإجلال لهم"يقربهم ويكرمهم " شديد الاحتفاء بهم ، ومن ذلك خروجه لاستقبال القاضي محمود كعت حينما قدم إلى جاو، حيث أكرمه كرما يليق بالعلماء[٤]

وتذكر المصادر أن أسكيا داوود (٩١٣-٩٩١هـ/ ١٥٤٩- ١٥٨٢م) كثر عطاؤه للقاضي المالكي العاقب المتوفى عام (٩٩١هـ / ١٥٨٣) فأعطاه مائة من الذهب وطلب منه أن يقسمها بينه وبين أهله وذريته وبين من يستحق شيئا منهم[٥] .

---

(١) كرم الصاوي باز : البيت والعائلة السنغاتية زمن الاسكيين(٨٩٩-١٠٠٠هـ / ١٤٩٣-١٥٩١م)،معهد البحوث والدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة ، ٢٠٠٥م، ص١٦.

(٢) محمود كعت :مصدر سابق ، ص٧٢ ، ٧٣.

(٣) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٩٥، ٢٩٦.

(٤) الحاج مرحبا : فتح الحنان المنان بأخبار السودان ، معهد البحوث والعلوم الإنسانية ، نيامي النيجر ، رقم ١٠٨ ،ص ٢٣ب .

(٥) محمود كعت : مصدر سابق ، ص١٠٦ ، ١٠٧ . .

وقد نال هؤلاء الفقهاء مكانةً ونفوذاً في المجتمع الذي يجلهم لكونهم حفظة الدين وحملة الشريعة ، وبالتالي أصبحوا محل رعاية خاصة من جانب الملوك والوجهاء والعامة على السواء[١] .ومن البديهي أن يحتل بعضهم مكانته ضمن طبقه الخاصة ، فهم يعتبرون العارفين بأحكام الغنائم والخراج والجباية وغيرها من الأحكام الفقهية ، وهم الذين يفتون بشرعية توجهات الملوك والأساكى. ومن ذلك ما حدث مع الفقيه محمود كعت عندما خرج مع الأسكيا داوود لاستقبال الحجيج وتقديم الهدايا لهم بعد عودتهم من رحلة الحج ، وقام الأسكيا داوود بنفسه تعظيما لهم وقبل أيديهم ، وأقبل على رجل من عبيده يقبل يده وهولا يعرفه، فأشار له أحد رجال الدولة بأنه من العبيد ، وثار الأسكيا ، وهناك من حلف بقطع يد هذا العبد لتجرئه على مصافحة الأسكيا . وهنا سأل الأسكيا داوود الفقيه محمود كعت الذي أشار عليه بتقدير هذا العبد لأدائه فريضة الحج واستجاب هذا الأسكيا وقال للقاضي محمود كعت : "ولولا العلماء لكنا من الهالكين فجزاك الله عنا خيراً"[٢] .

وكان بعض الفقهاء قد أهلتهم ثرواتهم المادية والعقارية لتصدر قمه الهرم الاجتماعي كما هو الحال لأسرة أقيت ، وإذا كان هناك بعض الفقهاء الذين رفضوا أن يكونوا في زمرة الفئة الحاكمة فتهربوا من المناصب العليا فقد كان هناك بعض الفقهاء الذين تولوا بعض الخطط الدينية في الدولة واستغلوا مكانتهم لرعاية شؤون العامة والدفاع عنهم والشفاعة لهم، وخير دليل على ذلك الفقيه أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت الذي عرف برقه القلب كما كان عظيم الجاه وافر الحرمة عند الملوك و الناس كافة نافعا لهم بجاههلا ترد له شفاعة، كما عرف بإنصافه للناس جميعا دون تميز[٣] .

---

(١) السعدي : مصدر سابق،ص٧٦ .

(٢) محمود كعت : مصدر سابق ، ص١١٢، ١١٣.

(٣) السعدي : مصدر سابق ، ص٤٢.

كما كان هؤلاء الفقهاء يمثلون الهيئة الأكثر اعتبارا بين أفراد الطبقة الخاصة من حيث الثراء والسلطة[١] ، وقد تولوا مناصب ذات أهمية ، على رأسها القضاء ، والفتوى، والتدريس ،والإمامة ، والخطابة ، وغيرها من المناصب[٢] وكان الحكام كثيرا مايطلبون من بعضهم المشورة وإبداء الرأي في عدد من الأمور ويتضح هذا في أسئلة الاسكيا محمد للفقيه المالكي المغيلي ، كما أخذ أسكيا داود رأي القاضي محمود كعت في كثير من الأمور[٣] .

وهكذا ارتفعت مكانة معظم فقهاء المالكية ، يتبين ذلك من خلال الاحتفالات التي أقاموها في بيوتهم لتقبل التهاني من الأساكى والأعيان والأهالي في مناسباتهم الخاصة . وعندما رزق القاضي محمود بن عمر بن محمد أقيت بابنه محمد أهدي له أسكيا ألف مثقال من ذهب[٤] .

ومما يؤكد أيضا المستوى الاجتماعي الرفيع الذي كانت تعيش فيه هذه الفئة الخاصة المثقفة من فقهاء المالكية في تنبكت ، ما أصابها بعد نكبتها في عهد سني على وفرارهم باتجاه ولاتة ، فكان ذلك أكبر نكبة عرفتها الطبقة المثقفة لأن اشتغالهم بالعلم دون العمل اليدوي جعلهم في حال ضعيفة[٥].

كما كانت هذه الفئة من الفقهاء تمتلك الخدم والعبيد ، كما كانوا يملكون وكلاء ينوبون عنهم في بعض المهام التي توكل إليهم مما أعطاهم الفرصة لحضور

---

(١) محمود كعت: مصدر سابق ،١٧٢، ١٧٣.

(٢) السعدي : مصدر سابق ، ص٥١

(٣) محمود كعت:مصدر سابق،ص ٩٧، السعدي : مصدر سابق،ص٢٨.

(٤) السعدي : مصدر سابق ، ص٣٤.

(٥) يقول السعدي في هذا الصدد : " ...ويوم الرحيل ترى رجلا كبيرا بلحيته أذا أراد أن يركب الإبل يبقى يرتعد خوفا منه وإذا ركب طاح على الأرض عند قيامه لان الإسلاف الصالحين أمسكوا أولادهم في جحورهم حتى كبروا ولا يعرفون شيئا من أمور الدنيا ..." ، أنظر السعدي : مصدر سابق ، ص ٦٥.

الاحتفالات وحضور دروس الوعظ التي كانت تعقد ليلاً حيث كانوا قادتها وروادها ولذا كانوا على علم كبير ودائم بالحوادث الهامة في البلاد[١] .

وهكذا اندرجت العائلات التي انتسب إليها فقهاء المالكية ضمن طبقة الخاصة ، حيث اكتسبت هذه العائلات مكانة اجتماعية مرموقة بفضل توارث أفرادها بعض الخطط والوظائف الدينية والقضائية الرفيعة في جهاز الدولة ، ولاسيما منصب القضاء خاصة في عهد دولة صُنغى[٢] . وقد عاش معظم أفراد الطبقة الخاصة عيشة رغدة ، وتمتعت بكل المزايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وحصلت علي امتيازات كبيرة من الحكام[٣] .

٢ـ مكانة فقهاء المالكية لدي طبقة العامة :

حوت طبقة العامة شرائح اجتماعية متنوعة و شكل وضعها المادي المتردي قاسما مشتركا بينها ، فشملت الحرفيين والصناع والمزارعين والرعاة والصيادين ، بالإضافة إلى العبيد والأقنان .

وقد اعتقد بعض المؤرخين المحدثين[٤] أن الفقهاء طبقة تعاونت مع الحكام لتغذية طبقة العامة بمفاهيم القضاء والقدر وبشرعية الحكم وإطاعة أولى الأمر . ولكن الحقيقة التي لاتقبل الشك أنه لم يكن الفقهاء طبقة اجتماعية بقدر ما كانوا شريحة اجتماعية على امتداد مجتمع السودان الغربي كله ، فبعضهم كان من المياسير والأغنياء ، وقد احتل هؤلاء الفقهاء مكانة خاصة لدى طبقة العامة في دولتي مالي

---

(١) محمود كعت: مصدر سابق، ص١٧٢ ، ١٧٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص٧٢ ، ٧٣.

(٣) المصدر السابق : ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٤) محمود إسماعيل : سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، دار الثقافة الجديدة ، تونس١٩٧٨ ،جـ١، ص٢٠٦

وصُنغى . ويرجع ذلك لكثرة الصدقة والعطاء للفقراء من جانبهم . ومن هؤلاء الفقهاء الفقيه الزاهد أبو بكر بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت الذي توفى عام (٩٩١هـ/ ١٥٨٣م) والذي كان خيرا صيتا وورعا زاهداً تقيا أواها وليا مباركا ، معروف الصلاح ظاهر الزهد والورع متين الدين كثير الصدقة والعطاء[١] . كما كان الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن علىٰ بن موسى عُريان الرأس المتوفى عام(١٠٢٠هـ/ ١٦١١م)[٢] زاهدا سخيا أخرج من ماله كله صدقه لله على الفقراء والمساكين وكذلك قام بشراء كثير من العبيد وأعتقهم لوجه الله تعالى[٣]

كما كان فقهاء المالكية يتمتعون بمكانة ومنزلة رفيعة سواء لدى الطبقة الحاكمة أولدى طبقة العامة ، حيث كانوا يقومون بدور الوسيط بينهم ، ومن ذلك كما تحدثت المصادر عن الفقيه محمد بن محمود بن أبى بكر الونكرى التنبكتى المتوفى عام (١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م)[٤]الذي يقال عنه إنه كان يسعى في حوائجهم ويضر نفسه لنفعهم ،ويتفجع لمكروههم ، ويصلح بينهم وينصحهم[٥] . وكذلك الفقيه صالح بن محمد أند عمر المعروف (بصالح تكن)المستحرم عند السلاطين والذي كان يتشفع عندهم للمساكين ولا ترد له شفاعة[٦] .

كما كان هؤلاء الفقهاء ملجأ للعامة من بطش هؤلاء الحكام ، فكانوا يفرون إلي دار الفقيه (القاضي أو الأمام) إذا تعرضوا لخطروهذه الحالة ومثلها كان قاعدة

(١) نفس المصدر : ص ٤٦.

(٢) السعدي : مصدر سابق ، ص٥٦.

(٣) المصدر السابق، ص٥٢.

(٤) المصدر السابق : ص ٤١.

(٥) المصدر السابق : ص٤٤.

(٦) المصدر السابق : ص ٣٦.

قانونية لا يجوز للسلطان تعديها[١] أو للفقيه أن يردها ولكن كان من واجبة الشرعي إرشاده إلى طريق الصواب والذي يتلاءم مع الشرعية الإسلامية[٢] من ذلك ما حدث زمن منسا سليمان ، حيث قامت زوجته قاسا بالتآمر عليه مع ابن عمه ، وبعد افتضاح أمرهما ، عزم منسا سليمان على معاقبة زوجته ،التي هربت واستجارت بدار الخطيب بعد عدم تمكنها من المسجد فلم يلحقها أي أذى[٣].

وقد تعلقت قلوب العامة من الفقراء والمساكين بالفقهاء بسبب الاهتمام بهم أثناء المحن والكوارث ، حيث إنهم اعتادوا على إظهار أعمال البر والخير ، وكذلك حث طبقة الخاصة والمياسير تجاه هؤلاء بكثرة الصدقات ومنح العطايا والهبات. فعندما حدثت المجاعة التي راح ضحيتها كثير من هؤلاء العامة (الفقراء والمساكين)قام الفقيه محمود بن أبى بكر الونكرى التنبكتى(٩٣٠ -١٠٠٢هـ / ١٥٢٣-١٥٩٣م) بجمع التبرعات من المياسير في مدرسة الفقيه القاضي مؤدب محمد الكابرى لتوزيعها علي هؤلاء الفقراء والمساكين عند باب سنكرى[٤].

كما كان الفقهاء دائما يحثون الأسر الحاكمة على الاهتمام بالفقراء والمساكين وتقديم المساعدات لهم ، وخير دليل على ذلك أن القاضي العاقب بن محمود كان يأخذ من الأسكيا داود كل عام أربعة آلاف صينية ليقسمها على فقراء المدينة والمساكين[٥] .

---

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) محمود كعت : مصدر سابق ، ص٩٧ ، السعدي:مصدر سابق ، ص ٢٨.

(٣) ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص٦٧١.

(٤) ومن عادتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجادته فيبسطها له بموضع يستحقه ، حتي يذهب إلي المسجد ، أنظر رحله ابن بطوطة ، مصدر سابق ، ص ٦٧٢.

(٥) محمود كعت : مصدر سابق ص١١٥ .

وقد زاد من مكانة فقهاء المالكية في مجتمع دولتي مالي وصُنغى ما أظهره بعضهم من بعض الكرامات التي تحدثت عنها بعض المصادر والمراجع منسوبة لعدد كبير من فضلاء الفقهاء المالكية و التي كان لها دور و أثر عميق في قلوب الخاصة والعامة على السواء ،مما يدل على تقدير الفقهاء والعلماء في هذه البلاد ، وخير دليل على ذلك ما ورد في كتاب أحمد بابا (تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء) عن بعض خصائص هؤلاء العلماء وما تمتعوا به من مكانة فقال : "...هذا جزء قصدتُ فيه إلى ذكر ما ورد من فضل العلماء والأخيار من الآيات والأخبار التي روتها الأئمة الأبرار ، بما خصوا به من أنواع الإكرام ، ومزيد الاعتبار ، على جميع الخلق في كل الإعصار ليكون تنبيها لمن جهل جليل ما لهم من عظيم المقدار ليوفيهم ويجعلهم وسيلة لربه في المهمات الكبار..."[1] إلى غير ذلك من كتب المصادر التي بينت مكانة فقهاء المالكية وخاصة بما أمتازوا به من قوة ودعم الإسلام في هذه البقاع النائية.

---

(١) أحمد بابا : تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء ، تحقيق سعيد سامي ، المملكة المغربية ، جامعة محمد الخامس ، منشورات معهد الدراسات الإفريقية بالرباط ، نصوص ووثائق ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م، ص ١٣، ومن ذلك ماذكرته كتب المصادر عن سيدي يحيى ، فتقول : حدثنا الشيخ الفقيه الأمين بن أحمد أن جواري الشيخ سيدي يحيى طبخن حوتا طريا من الصبح إلى العشى فلم تؤثر فيه النار فتعجبن من ذلك حتى سمعه الشيخ فقال لهن :" أن رجلي مست شيئا مبلولا في السقيفة حين خرجت لصلاة الصبح اليوم لعل هو والنار لاتحرق ما مس جسدي " ....أنظر السعدي : مصدر سابق ، ص٥١ ،وكذلك ما جاءت به كتب المصادر عن الفقيه أحمد بن عمر محمد أقيت أنه لما زار القبر الشريف طلب الدخول الى داخله فجلس بخارجه يمدحه ﷺفانحل الباب له وحده بلا سبب فتبادروا لتقبيل يده ، والفقيه محمود بن عمر بن محمد أقيت ، صاحب الكرامات كم نودي في مواطن الغيبة لتفريج الشدائد والملمات فحضر وأنقذ ... ! وبعد مادفن أخوة الأكبر الحاج أحمد ورجع لدارة صار حزينا جدا بحيث يعزيه الناس ولا يفطن لهم ، فلما جاء بدار عثمان طالب تنفس الصعداء ، وقال الآن أفترق أخي أحمد عن الملائكة وعلم الناس أنه يشاهدهم ، وتقول المصادر إن هذا نوع عظيم من الكرامات والمكاشفات أنظر السعدي المصدر السابق ، ص٣١ ،وهذا الفقيه إبراهيم بن الفقيه القاضي عمر حدث بينه وبين الاسكيا محمد مشادة قام مغضبا فسار نحو المرسى وقال لا صحابه : نسير ونقطع البحر ونمشي في حالنا ، فلما وصل البحر أراد أن يدخل فيه قالوا : له القارب ما كانت الساعة أصبر حتى يجيئ قال : ولو لم يكن ففهموا منه أنه يقطع البحر بلا

ثالثاً: دور فقهاء المالكية تجاه العادات والتقاليد ذات الأصول الوثنية:

حاول فقهاء المالكية جاهدين تبنى المفاهيم الإسلامية في الأوساط الاجتماعية داخل مجتمع السودان الغربي على مختلف فئاته حيث كان هذا المجتمع قد أخذ معه الكثير من العادات والتقاليد ذات الأصول الوثنية ، وذلك أثناء تحوله إلى الإسلام ، وقد واجه العلماء كثيرا من المخالفات الاجتماعية والبدع وكثيراً من مظاهر الشرك التي كانت سائدة قبل الإسلام حيث ألقت هذه الوثنيات القديمة بظلالها على عادات الكثير منهم نتيجة تمسكهم بتلك العادات التي توارثوها عن أسلافهم

ولما كان الفقهاء يمثلون الطبقة الدينية المثقفة في المجتمع فقد كانوا موضع نظر الحكام والعامة على السواء ، يسترشدون برأيهم وينتظرون مواقفهم الإصلاحية . ومن هنا كان عبء الإصلاحات الاجتماعية ومحاولة الحفاظ على قيم المجتمع المسلم ومبادئه ملقاة في المقام الأول على كواهل هؤلاء الفقهاء فأعين الناس حكاما ومحكومين تتجه إليهم .

وقد بذل هؤلاء الفقهاء جهودا كبيرة وشاقة في مقاومة فساد الأجواء المحيطة بهم ومحاربة الفساد والمفسدين في البلاد ، كما حاولوا المحافظة على الآداب العامة في

قارب (أي عنده مقدرة على المشي على الماء) ،أنظر السعدي المصدر السابق ، للفقيه أبى القاسم التواتى : المتوفى عام(٩٢٢هـ/ ١٥١٦م) الذي كان صاحب كرامات وبركات يطعم الطعام وكثرة أطعامه للمداحين لشدة محبته لمدح النبي ﷺوموضع المدح قريب من داره ومتى سمعهم يمدحون خرج إليهم بالأرغفة المسخونة كأنما خرجت من الفرن في تلك اللحظة ولو كان في جوف الليل حتى تبين للناس أنها نوع من الكرامة ، ومن كراماته أيضا أن المؤمنين رأوا الماء يقطر من ثيابه يوما واحدا رهو في صلاة الصبح ويفلس بها جدا فلما سئل ؟قال :استغاث بي غريق تلك الساعة في بحر دب فأنقذته من الغرق في الماء (وهو جالس معهم بدون ذهاب)وروى أن الناس ازدحموا على نعشه في الليلة المظلمة وتصادموا حتى سقطوا على الأرض جميعا وبقى النعش في الهواء واقفا بقدرة الباري سبحانه حتى قاموا وأمسكوه ورأي الناس هناك جماعة كثيرة غير معروفين ....وذلك من كراماته والله أعلم. أنظر السعدي : المصدر السابق ، ص٥٩،وغير ذلك كثير في كتب المصادر.

الطرقات والمناسبات المختلفة وغير ذلك . وقد حملت أسئلة فقهاء المالكية إلى الإمام السيوطي ، وكذلك أسئلة الأسكيا محمد إلى الإمام المغيلى كثيراً من هذه الهموم لاستبيان رأى الدين الإسلامي فيها .

ويمكن تقسيم عادات أهل السودان الغربي إلى عادات إيجابية وأخرى سلبية، ويأتي على رأس العادات الايجابية ظاهرة التدين ، التي أشار إليها الرحالة الذين خالطوا أهل هذه البلاد ، فها هو ابن بطوطة[1] يصف سكان تلك البلاد الذين عاينهم وتعامل معهم خلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر للميلاد ، فذكر أنه "في كثير منهم التدين القوى" . وتجلت مظاهر هذا التدين في أروع صورها إبان محافظتهم على الصلوات والتزامهم بها في الجماعات ، وضرب أولادهم عليها ،وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد مكاناً للصلاة لكثرة المصلين[2] .

وتتجلي مظاهر تدينهم كذلك في عنايتهم بحفظ القرآن الكريم ، فهم يقيدون أولادهم إذا ظهر منهم التقصير في حفظه فلا ترفع هذه القيود عنهم حتى يحفظوه[3]

(١) هو أبو عبد الله محمد اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة : وصل بلاد مالي في أعوام (٧٥٣ ـ٧٥٤هـ/ ١٣٥١ـ١٣٥٣م) . في عهد ما نسا سليمان .

(٢) ومن عادتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجادته فيبسطها له بموضع يستحقه بها حتى يذهب إلى المسجد ، أنظر رحلة ابن بطوطة ، مصدر سابق ، ص٦٧٢.

(٣) وقد دخل ابن بطوطة يوم العيد وأولاده مقيدون فقيل له :ألا تسرحهم ؟ فقال: لا أفعل حتى يحفظوا القرآن ، وكذلك مر بشاب منهم حسن الصورة علية ثياب فاخرة ، وفى رجله قيد ثقيل فقال لمن معه :ما فعل هذا ، أقتل ؟فقهم الشاب وضحك وقال لابن بطوطة :إنما قيد حتى يحفظ القرآن ، أنظر رحلة أبن بطوطة : مصدر سابق ، ص٦٧٣.

كما يعد العدل من عاداتهم الإيجابية ، بالإضافة إلي انتشار الأمن في بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب ، كما إنهم موقنون من عدم التعرض لمال من يموت ببلادهم من المسلمين الوافدين إليهم ، ولو كان قناطير مقنطرة إنما كانوا يتركونه بيد ثقة من هؤلاء المسلمين الوافدين حتى يأتي و يأخذه من يستحقه[١].

ومن عاداتهم الأيجابية أيضا حب النظافة والاعتناء بها شهد لهم بهذه الظاهرة أيضا الرحالة ابن بطوطة ، ومنها أرتداؤهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خرق غسله ونظفه وشهد به صلاة الجمعة[٢].

أما العادات السلبية فيمكننا رصد بعض منها استنادا إلى ما ذكرته المصادر ويأتي على رأسها الاعتقاد في الأساطير والخرافات والقوى السحرية واتخاذ الطلاسم ، فقد كان من العادات المتوارثة فيما يتعلق بالمريض أنه أذا أراد أهله أن يعلموا أن كان سيشفى أو سيموت ، كانوا يكسرون البيض فوق رأس هذا المريض، كما كانوا يقومون بنحر الذبائح تحت أقدامه . وكذلك كانوا يعتقدون في أهل السحر الذين يستعملون أسماء الله الحسنى و آياته في غير المباح للتفريق بين المرء وزوجه ، ومنهم من يزعم أنه يعرف ما إذا كرهت البهيمة أولادها و سبب ذلك ، فيأخذون من أشعار رأسه أو لحيته فيبخرونه على تلك البهيمة فيوافق مرة ومرة لا[٣] . ومنهم من يكتب لمن أراد حاجة عند أحد مما جعل أهل السحر

(١) المصدر السابق ، ص٦٧٢.

(٢) المصدر السابق ، ص٦٧٣.

(٣) عبد الرحمن السيوطي :الحاوي للفتاوى ، دار الفكر ، بيروت لبنان ، ١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٤م ، ص٣٤١.

أرفع مقاما وأكثر رزقا وحكما[١] . ومنهم من يقول ويعتقد أن بعض الناس يقتلون بعضا بمس أومقازبة ويزعمون أنهم يمرضونهم ، وإذ أعطوهم ما أرادوه داووهم ومنعوا عنهم أذاهم[٢] ومنهم من يمشى بين العوام ويناجى كل من يلقاه : ألا أريك رقية العين من أجل المحبة والنكاح ودخلة القلوب والقبول عند السلاطين ، وأمثال ذلك من أمور السحر والشعوذة[٣].

كما ظهر بينهم أيضاً من يدعى أنه يعلم الغيب ، باستخدام خط الرمل ونحوه[٤] ، ومنهم من يترصد مواقع النجوم ويترجم وضعها في ذلك المكان إلى حوادث معينة ستحدث ، والبعض الأخر يترجم أصوات الطيور إلى أشياء معينة[٥] .

---

(١) منهم من إذا سرق ماله أخذ المتهمين فيوقد نارا ويقيد المتهمين بشي قصير ويأمرهم بالمشي علية فيمرون فالذي يسرق تارة تحرقه النار، والذي لا يسرق لاتحرقه و لا تمسه ، ومنهم من يأخذ المتهم ،ويأخذ المرأة ويعلقها على خيط ويأخذ الخيط ويدلى المرأة ويجعل الخطين في الأرض ويجعل الرماد على خط واحد من الأرض ويترك الآخر ويدليها على وسط الخطين ويقرأون سورة يس على ذلك فأن تحركت المرأة وجرت على طريق الرماد ثبتت السرقة علية وإلا فلا أنظر : السيوطي مصدر سابق،صـ٣٤١، الهادي مبروك الدالي : مرجع سابق ، ص٤٤.

(٢) السيوطي : مصدر سابق ، ص٣٤١ .، ويروى السعدي : أن أحد المشعوذين أحضر خابية مملؤة بالماء و قرأ عليها ونادي باسم فأجاب وقال له أخرج إلى فخرج شخص من الماء بقدرة الله على شكل الرجل الذي يريد الانتقام منة وجعل الحديد في رجليه ، وطعنه بالحربة ، أنظر السعدي : مصدر سابق ، ص٩٩.

(٣) السيوطي : المصدر السابق ، ص٣٤٣.

(٤) يستخدم خط الرمل لمعرفة الحاضر أو المستقبل ،وله ست عشرة حالة ، وأسماء وبعضها يرمز للخير والبعض الأخر للشر ، ومن يريد أستعمالة يأتي بتراب نظيف ، ويبسطه على الأرض ، ثم ينقط فيه بالأصابع الوسطى أربعة أسطر .من غير عدد بالحذف زوجا فزوجا إلى أن ينتهي إلى الأخر ، وإذا كان زوجا أو فردا أثبته ، ثم يثبت ما تبقى من السطر الأول أولا ، ومن السطر الثاني بعدة ، إلى أن تنتهي الأربعة أسطر فيتكون منها شكل عددي ، يستخلص من خلاله الحال والطلب ، التاريخ الحضاري : مرجع سابق ، ص٧٦ ، ٧٧ .

(٥) المغيلى : مصدر سابق، ص٣٤.

Mariam Konate Deme : THE ROLE AND FUNCTION OF THE

وكانت هناك حلقات تعقد في الأسواق ومحلة للعرافين والذين يستخرجون العين ، وكان أكثر روادها من النساء، وعندهم طلاسم للنكاح والبيع والشراء و الرهج والحروب والمحبة ووجع الرأس والضرس ويزعمون أنهم ملوك الدنيا وأبناء الأنبياء[١] ..

وقد أنكر فقهاء المالكية في تلك البلاد تلك السلوكيات وكان لهم دور تجاه هؤلاء السحرة ومن يتعاملون معهم فكانوا يحاولون إقناعهم هم ومن يتعامل معهم بالبعد عن السحر . فإذا فشلت محاولاتهم هذه لجأوا إلى الحكام لتحريضهم على هؤلاء السحرة ويطالبون السلاطين بقتل هؤلاء السحرة[٢] نظرا لخطورتهم ونفوذهم وهيبتهم الكبيرة لدى الأهالي.

كما كانت هناك ممارسات وثنية تؤدى مع العبادات الشرعية بل اختلطت بها، واعتقد العامة أنها جزء منها ، ومن ذلك أنهم قوم يشهدون أن لا اله إلا الله محمد رسول الله ﷺ وعادة بعضهم بناء المساجد وتلاوة القرآن والعلوم والمدائح والحج ومع ذلك كان بعضهم يعتقدون أن هناك من ينفعهم ويضرهم غير الله عز وجل ، حيث كان لهم أصنام يتقربون إليها لها ويذبحون ، وبعضهم الأخر يعظمون الأشجار ويذبحون عندها الذبائح[٣] .والراجح ان فقهاء المالكية استغلوا مجالس الوعظ في محاربة هذه السلوكيات الوثنية بالإضافة إلي الخطب الدينية كخطبة الجمعة ، كما واَجَهَ فقهاء المالكية في مجالس الوعظ والخطابة بعض السلوكيات المخالفة للشرع مثل أناس كانوا يؤدون صلاتهم بالتيمم فلا يتوضأ أحدهم إلا نادرا، وكانوا

SUPERNATURAL IN THE AFRICAN EPIC, A Dissertation Submitted to The Temple University, Graduate Board,٢٠٠٤,pp٩٩\١٠٠

(١) السيوطي :الحاوي للفتاوى ، ص٣٣٩.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٥، ص٢٩١.

(٣) المغيلى : أسئلة الاسقيا وأجوبة المغيلى ، مصدر سابق ، ص٣٥.

أيضاً لا يغتسلون من الجنابة إلا نادرا، ولا تصوم نساؤهم ولا تصلي إحداهن إلا إذا كبرت ، ويدخلن المساجد ومع كل واحدة منهن عصا[١].

كما واجه فقهاء المالكية حالات الغش في الأسواق ، فقد كان بعضهم يقوم بخلط اللبن بالماء ، وبيع اللحم مع الشحم ، ومنهم من يقوم بنفخ اللحم[٢] ، ومنهم من إذا اشترى سلعة حازها وذهب بها قبل أن يدفع لصاحبها ثمنها ، فإذا ندم أو لم يبعها بربح وطلب منه صاحبها ثمنها قال له : خذ سلعتك أو اصبر حتى نبيعها[٣].ومنهم من يطفف المكيال والميزان بالزيادة والنقصان ، ومنهم من يغش الذهب والفضة بالنحاس ، أو يأبى أن ينزف التبر من التراب[٤].

كما انتشرت بينهم النميمة والتجسس والبخل والجبن والقسوة والظلم والفساد وقطع صلة الرحم وشهادة الزور والحلف بالأباء والأمهات والتكبر وأكل الحرام[٥] ، ويذكر ابن بطوطة ، أن كثيرا منهم يأكلون الجيف والكلاب والحمير[٦].

ومن العادات التي استقبحها الرحالة لبعض أهالي البلاد عادة عدم احتشام بعض النساء من الرجال ، وكذلك عدم احتجاب المرأة عن أخي زوجها وابن عمه أو صاحبه مع مواظبتهن على الصلاة ، كما كان لديهن الأصدقاء والأصحاب من

(١) السيوطي : المصدر السابق ، ص٣٣٨.

(٢)المغيلي : مصدر سابق ، ص٦٣.

(٣) السيوطي : مصدر سابق ، ص٣٣٩ ، المغيلي : مصدر سابق ، ص٦٣.

(٤) وهذا معروف من أيام غانا في القرن الحادي عشر حيث توافرت في كتب الرحالة العرب ، على أن الملوك في السودان الغربي ، كانوا يصطفون لأنفسهم السبائك الذهبية ، ولا يتركون للناس إلا تراب الذهب (التبر) للتعامل ، وهم يفعلون ذلك لكي تبقى للذهب أهميته "

(٥) السيوطي : الحاوي للفتاوى ، مصدر سابق ، ص٣٣٨.

(٦) ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص٦٧٢.

الرجال الأجانب ، ويدخل الرجل داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك ، كما كان للرجال صواحب من النساء الأجنبيات[١].

وكذلك أنكر الرحالة عادة العري وكشف عورات النساء الحرائر والإماء وإن كانت بنت القاضي ، وتلك عادة كانت مشهورة ومطردة بينهم[٢].

وهنا أفتى الفقهاء للأسكيا محمد بما يقتضيه الشرع تجاه عادة العرى والاختلاط، وبالفعل كان الأسكيا الحاج محمد أول حاكم سوداني غربي يرغم المرأة على اتباع قواعد السلوك والآداب الإسلامية الحميدة في الزى ، وفى عدم الاختلاط بالرجال إلا في حدود الشرع، وبلغ في صرامة مراقبة سلوك الرعايا لضمان الالتزام الإسلامي أن رجال الشرطة في عهده ، كانوا لا يترددون في إلقاء القبض على أي رجل يشاهد في صحبة امرأة أجنبية عنه أو في حديث معها ، ثم يوضع في السجن[٣] وهكذا أعان فقهاء المالكية الاسكيا محمد في مواجهة عادة الاختلاط وشددوا على تحريم هذا الأمر ونفذ الأسكيا فتواهم .

---

(١) المصدر السابق والصفحة .

(٢) وكذلك هناك عادة عرى النساء وهذا ما شاهده ابن بطوطة فقال:" ومن مساوئ أفعالهم كون الخدم والجواري والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات ، ولقد كنت أرى في رمضان كثيرا منهن على تلك الصورة ، فإن عادة الفرارية أن يفطروا بدار السلطان ويأتي كل واحد منهم بطعامه تحمله العشرون فما فوقهن من جواريهم ، وهن عرايا .ويذكر كذلك دخول النساء على السلطان عرايا غير مستترات ، وكذلك تعرى بناته، وقد شاهد خروج نحو مائة جارية يحملن الطعام إلي قصره عرايا في ليلة السابع والعشرين ومعهن بنتان لهن ناهدان ليس عليهما ستر،وكانت عادة كشف عورات الحرائر والإماء متفشية بينهم حتى كانت البنت في جني لأتستر شيئا من عورتها مادامت بكرا ولو بلغت خمسين سنة وكانت شابة من أجل النساء تخرج بين الناس عريانة بلا ستر أصلا ، وهى بين أبيها وإخوانها كذلك ، حتى تتزوج ، ولو كانت بنت السلطان أو القاضي ، أنظر : أبن بطوطة : المصدر السابق ، ص٦٧٣، عبد القادر زبادية :أسئلة الاسكيا ،ص٦٣ ،السيوطي : الحاوي ،ص٣٣٩.

(٣) جوزيف كيزربو:تاريخ أفريقيا السوداء ، باريس ، ١٩٧٨،ص١٤٥..

كما كان عند الملوك عادة وطء الحسان بدون زواج وهذا ما ذكره العمري[١] فقال : "وذكر لي عنه ابن أمير حاجب أنه حكي أن من عادة أهل مملكته أنه إذا نشأ لأحد منهم بنت حسناء قدمها له موطوءة فيملكها بغير زواج ، مثل ملك اليمن ، فقلت لمنسا موسى :"إن هذا لا يحل لمسلم شرعا " فقال :ولا للملوك ؟ فقلت ولا للملوك واسأل العلماء فقال منسا موسى :"والله ما كنت أعلم ذلك وقد تركته من الآن"[٢].

كما كانوا يتناكحون بغير صداق ، ومنهم من حرفته أن يتزوج النساء الكثيرات الأموال ويعيش على رزقهن[٣] ، وكان أولياء الأمور لا يزوجون بناتهم إلالصاحب مال ونسب ،ولا يزوجون الفقير ولو كان عالما صالحا تقيا[٤].

وهنا جاء دور الفقهاء المصلحين الذين قاموا بما يشبه ثورة التصحيح لتصحيح الشريعة الإسلامية بعد عهد سني على الذي أحدث انتكاسة للشريعة الإسلامية الصحيحة بعد عهد دولة مالي ، فظهرت صور كثيرة للفساد الاجتماعي والديني طوال عهده وحتى بعد وفاته عام (٨٥٥هـ/ ١٤٥١م) ، فبذل هؤلاء الفقهاء جهدا كبيرا لإصلاح هذه العادات وفق الشرعية الإسلامية ولو أنهم لم يستطيعوا القضاء عليها جميعها[٥].

ومن العادات السلبية الأخرى التي انتشرت في المجتمع بين أهل مالي وصُنغى العادات الخاصة بالميراث فهم لا يتوارثون على الكتاب والسنة ، وإنما كان

---

(١) هو ابن فضل الله ، المتوفى عام ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨ م. مسالك الإبصار في ممالك الأمصار ، جـ٤ ، ،١١٩، ١٢٠.

(٢) القلقشندى : مصدر سابق ، ص ٢٩٦.

(٣) عبد الرحمن السيوطي : مصدر سابق ،ص٣٣٧.

(٤)المصدر السابق ، ص٢٤٢.

(٥) المغيلي : مصدر سابق ، ص ٢٤٢.

يأخذ مال الميت ابن أخته، وكانوا على هذه الحالة منذ القدم[١] وفيهم كذلك من يقر الميراث كما فرضه الله تعالى ، ولكن أذا كان في الورثة كبير استولى على جميع التركة ، ويدعى بأنه في منزلة أبيهم ، ويقوم بإعطاء الزوجة نصيبها ويستولى هو على المتبقي ،من غير إيماء ولا تقديم ولارضى أحد منهم ولا يتعرض له أحد في ذلك مدة حياته ، حتى أذا مات استولى على تركته الأقوى أيضا ، وبعضهم لا يورث الزوجة ولا غيرها من النساء[٢].

وكذلك من عاداتهم السلبية أن منهم من كان يقوم باسترقاق الأحرار ويدعوهم بالعبيد، فإن مات من أدُعى عليه ذلك لم يقسموا ماله بين ورثته لانهم رقيق في نظرهم وإن قلت لهم هؤلاء أحرار كادوا يقتلونك ويقولون: هؤلاء عبيد أتباع للسيف ، ومنهم من يسخر منهم ويأخذ منهم الأموال ولا يضرهم في أنفسهم ، ومنهم من يبيعهم بالتنافس والتنازع[٣] وهنا أتي دور الفقهاء الذين استشارهم الأسكيا الحاج محمد الكبير وأخذ برأيهم في عادة الاسترقاق وتحطيمها بصفة رسمية[٤].

---

(١) السيوطي : المصدر السابق ، ص٣٣٧ .

(٢)"وهنا يقرر الباحثون أن البشرية كانت في أطوار سابقة تعتبر قضايا الإرث والاستخلاف مرتبطة بالأم ، لان إلام هي ربة المنزل ، وهى التي يعود أليها جميع الإفراد في العائلة ، وقد كان ذلك أكثر وضوحا لما كانت البشرية تمر بأطوار لم ينتظم فيها الزواج ، فقد يكون للأم عدد من الأزواج في أن واحد ، وفى مثل هذه الحالة ، فأن الأم وحدها هي التي تمثل الأصالة في انحدار جميع أفراد العائلة من نسلها " .

(٣) السيوطي : مصدر سابق ، ص٣٣٧ .

(٤) فاى منصور على : أسكيا الحاج محمد وإحياء دوله السنغهاى الاسلامية (٨٨٩-٩٣٥هـ/ ١٤٩٣-١٥٢٩م)منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، الجماهيرية العظمى ، طرابلس ، ص٦٤.

(٤) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ١١٤.

ومن العادات السلبية التي اتسم بها القصر الملكي في جاو أثناء مجلس يوم الجمعة ما حدث من الاسكيا داوود ١٥٤٩-١٥٨٢م. الذي كان يجلس وحوله عبيده الخصيان يقفون على رأسه وهم نحو سبعمائة وعلى كل واحد لباس حرير فإذا أراد الاسكيا أن يبصق أو يتفل أسرع إليه بعض الخصيان وبسط له كمه فيبصق الاسكيا فيه ثم يمسح فاه من النخام[١] ، وكان أن شاهد هذا الفعل الفقيه أحمد بن سعيد سبط القاضي محمود بن عمر بن عمر أثناء وجوده في العاصمة فتكلم مع الأسكيا داوود وانتقده ورفض هذا التصرف [٢] .

رابعاً : فقهاء المالكية والاحتفالات الدينية :

احتفل أهالي مالي وُصنغى بالمناسبات العامة كالأعياد الدينية وشاركهم فقهاء المالكية هذه الاحتفالات ومنها الاحتفال بذكرى الإسراء والمعراج فكان الأهالي يحيى هذه الليلة ا، ويصوم معظمهم اليوم السابق لها ، ويقوم فقهاء المالكية بقراءة القرآن الكريم والمدائح النبوية ، كما كانوا يقومون بشرح أهمية هذه الذكرى ، وموقف أبو بكر الصديق والصحابة منها ، وكذلك موقف المرتدين والمشركين من رسول الله ﷺ ، ويكون ذلك في المساجد والأماكن المختارة لهذه المناسبات[٣] .

كما شارك فقهاء المالكية في الاحتفال بالمولد النبوي ، وكان هناك حرص على الاحتفال بهذا اليوم في مالي وُصنغى وهو في شهر ربيع الأول من كل عام. ويلقى هذا الاحتفال مزيداً من الاهتمام والتبجيل تقديرا وتبركا بذكرى سيد الأنام محمد بن عبد الله ﷺ حيث يقوم فقهاء المالكية فى هذا الاحتفال بإلقاء دروس الوعظ والإرشاد ، وكذلك الدروس الدينية حول سيرة خير البرية ﷺ في المساجد والجوامع ، كما تنشد

---

(٢) المصدر السابق والصفحة .

(٣) المصدر السابق ، ص١١ ، الفشتالى : مناهل الصفا في أخبار موالينا الشرفا مصدر سابق ، ص٢٦٤.

المدائح النبوية بأبيات عربية في ساحات المساجد حتى الثلث الأخير من الليل[١]، وكان الفقيه أبو حفص عمر بن الحاج أحمد يداوم في هذا اليوم على مدح رسول الله ﷺ في الصباح وفي المساء، كما كان الأهالي يحرصون على تقديم الطعام للمداحين لشدة محبتهم لمدح النبي ﷺ[٢]. وفي يوم العقيقة وهو اليوم الثامن عشر من شهر ربيع الأول يتوجه كافة الناس وعامتهم إلى جامع سنكرى لمشاركة فقهاء المالكية في دعاء ختم القرآن الذي يختم إحياء لذكرى مولد النبي الشريف ﷺ[٣].

كما كان لفقهاء المالكية دور مهم في استعداد مسلمي تلك البلاد لاستقبال شهر رمضان تطبيقا لتعاليم السنة النبوية الكريمة، فكانوا يحثون الناس على أن يكثروا من العبادة وفعل الخير و التردد على المساجد في أوقاتها ،بالإضافة إلى حثهم على قراءة القرآن الكريم. كما كانوا يقومون بسرد أو تدريس كتاب الشفا لعياض في مسجد سنكرى في كل يوم من أيام شهر رمضان و في المدن الكبرى مثل تنبكت وجني و جاو[٤].

وعندما يقبل شهر رمضان فإن الأهالي يستعدون له بشتى أصناف الأطعمة والحلوى، وفي ليلة القدر يسهر الأهالي في هذه الليلة العظيمة وهي ليلة السابع

---

(١) محمود كعت : مصدر السابق، ص٦٠ ، مجهول : تذكرة، ص٢٠.

(٢) MBOW Panda : Les péripéties du voyage de Tombouctou,p : ٣٤١ , la culture Arabo international tenu a Tombouctou en Août ١٩٩٥ , Publication de la foundation ta mimi Zaghoun , Tunisie ١٩٩٧ كما كان يفعل الإمام أبا القاسم التواتي إمام الجامع الكبير ،أنظر السعدي ، مصدر سابق ، ص٥٩.

(٣) مجهول :تذكرة النسيان ، ص١٥٧.

(٤) مثلما كان يفعل الفقيه الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت ، وكذلك أبو حفص عمر أبن الحاج أحمد ، والفقيه محمد الأمين بن القاضي سيد أحمد الذي كان يدرس كتاب الشفا للقاضي عياض لمدة ثلاث سنوات في رمضان ، أنظر السعدي :مصدر سابق ، ص٣٣ ، ٣٨، مجهول :تذكرة ، مصدر سابق ص٥٤.

والعشرين من شهر رمضان المبارك وذلك بالعبادة والذكر والإرشاد في المساجد حتى الفجر[١] ، أما الاعتكاف في العشر الأواخر من شهر رمضان فكان يوجد بكل مسجد[٢] ، وأيضا تقام في بيوت الأغنياء احتفالات كبيرة طوال شهر رمضان يتم فيها قراءة القرآن الكريم ، وشرح السيرة النبوية ، وسير الصالحين ، كما تقام موائد الطعام والشرب تمجيدا لهذا الشهر الكريم .

وعندما يأتي موعد الاحتفال بعيد الفطر والذي يسمى في مالي وُصنغى (فيرمي جينغر) ويعني عيد تسريح الفم للأكل والشرب ، وهو عيد يختم به شهر رمضان المبارك فكان الاحتفال يبدأ منذ الليلة السابقة له حيث تتم مراقبة الهلال ، وبمجرد التأكد من رؤيته يقصد العدول من الرجال دار القاضي أو السلطان للإدلاء بشهادة رؤية الهلال ، ويبدأ في اليوم الأول من شهر شوال ويستمر عندهم على مدار ثلاثة أيام تسودها مظاهر الاحتفال الديني. ففي دولتي مالي وُصنغى كان الفقهاء والأهالي يخرجون إلى المصلى مرتدين الملابس البيضاء ، وينتظرون السلطان الذي يأتي إليهم واضعاً طيلساناً على رأسه ، لا يلبسه إلا في الأعياد مشاركا في ذلك فقهاء المالكية ، الذين يلبسونه طيلة العام . وكان من عادات الأهالي أنهم عندما يمثلون بين يدي السلطان يتعالى تكبيرهم وتهليلهم وبأيديهم الأعلام الحمراء المصنوعة من الحرير ، وبعد الانتهاء من الخطبة ينزل الخطيب من على المنبر ، ويجلس بين يدي السلطان ويبدأ بذكر مآثره الحسنة ، وكذلك يدعو إلى طاعة السلطان ،وكان المترجم الذي يعرف (بالدوغا) يترجم للناس مقالة هذا الخطيب[٣].

وكان الاحتفال بعيد الأضحى من أهم الاحتفالات الدينية التي حرص عليها فقهاء المالكية ويسمى في مالي وُصنغى " كبيسي " وهو تحريف للكلمة العربية

---

(١) محمود كعت : مصدر سابق ، ص١٨٠ ، مجهول :مصدر سابق ، ص٨٤.

(٢) محمود كعت : مصدر سابق ، ص١٨٠ ، مجهول :مصدر سابق ، ص٨٤.

(٣) ابن بطوطة : رحلة أبن بطوطة ، ص٦٨٦ ، ٦٨٧.

الكبْش أي عيد الكبش ، الذي يأتي في العاشر من شهر ذي الحجة . ويسبق الاحتفال صيام يوم عرفة وكما هومعروف فهو يوم وقوف الحجاج بجبل عرفة، ومن أجل مشاركة هؤلاء الحجيج في موقفهم يصوم المسلمون هذا اليوم باعتباره يوماً عظيماً ومقدساً في حياة الأمة الإسلامية ، ويقوم فقهاء المالكية في هذه الأيام بواجبهم الديني ، كما يقرأون القرآن الكريم والمدائح النبوية في المساجد والأماكن المختارة لهذه المناسبات[١] .

وكان الاحتفال بيوم عاشوراء يسمي (دِيدَوْ) وهو في اليوم العاشر من شهر المحرم ، وهو عيد يحظى باهتمام بالغ لدى مجتمعي مالي وُصنغى، حيث إنهم يعتبرونه يوماً لتطهير النفوس وتهذيبها لسنة جديدة فكانوا يتزاورون فيما بينهم طالبين العفو والسماحة ، ويقولون في هذا اليوم (يسي غوما) ، بمعنى : أرنا الله السنة القادمة بالسعادة والازدهار ويشارك فقهاء المالكية في هذا الاحتفال بأن ينظموا حلقات الذكر والوعظ والإرشاد في مختلف أرجاء المدن ، إضافة إلى تلاوة القرآن وختمه ، وقراءة كتاب دلائل الخيرات بالجوامع ، وفي بيوت بعض العائلات الموسرة[٢] .

ويعكس لنا هذا الأمر مدى تأثير فقهاء المالكية في مجتمع مالي وُصنغى وحرصهم على استغلال المناسبات الدينية الإسلامية ودفعهم إلى اتخاذ مستهل السنة القمرية رمزاً لطلب العفو وتحقيق وتعميق أواصر القربى وتوثيق صلات الرحم وتوطيد العلاقة الأخوية الدائمة والمستمرة بين أبناء العائلات في هذا المجتمع.

كما كانت هناك احتفالات موسمية أخرى كالاحتفال بخروج وعودة موكب الحجاج وكان لهذا الاحتفال أثر كبير في نفوس الحكام والفقهاء وعامة الشعب لما فيه

---

(١) كعت: المصدر السابق ، ص١١ ، الفشتالى : مناهل الصفا في أخبار موالينا الشرفا ، مصدر سابق ، ص٢٦٤.

(٢) BABA Mahamane: op.cit, pp ١٨٥.

من إجلال وقداسة لديهم ، فإذا جاء مرعد الرحيل للرحلة المقدسة وكان في هذه الرحلة الملوك أو السلاطين يخرج في وداعهم كبار رجال دولتهم وعامة الشعب والجيش[١].

وكان لفقهاء المالكية حضور كبير في هذه الرحلة مما أضفى عليها السكينة والوقار، خاصة لوجود القاضي الذي له أهمية كبرى في هذه الرحلة لما قد يتعرضون له من نوازل وأحداث أثناء السير إلى الحج فكانوا يقومون له بالفصل فيها ، وكذلك الفصل بين الأفراد فيما يحدث بينهم أثناء المسير[٢] .كما كان للفقهاء دور كبير في مساعدة غيرهم من غير القادرين على الحج وحملهم معهم لأداء هذه الفريضة . وبعد أداء الرحلة المقدسة وهم في طريق عودتهم اعتاد هؤلاء الحجاج أن ينزلوا خارج البلد ولا يدخلوا إلا بعد استئذان الأسكيا الذي كان يخرج لملاقاتهم ويقدم لهم الهدايا ويقبل أيديهم إجلالاً لهم ، وتقام الاحتفالات وُتقرأ القصائد في التهنئة والرجوع من الحج التماساً للبركات من الحجاج[٣] .

هذا وقد لعب فقهاء المالكية أيضاً دورا كبيرا كذلك في المآتم والأحزان التي كانت تقام في مالي وصُنغى ، حيث كانوا يتقدمون المواكب في الجنازات التي كان يمشى فيها الناس بكل خشوع وأدب ، وكانت كثرة المشيعين أو قلتهم تتوقف على المركز الاجتماعي للميت ، وكانت الولائم تعد في منزل أسرة الميت ويحضرها فقهاء المالكية و طلاب القرآن الكريم ، حيث يقرأون القرآن إلي وقت متأخر من الليل ، وذلك لليال متوالية ، ثم يتم توزيع الهبات عليهم من قبل أسرة الميت وتتضمن هذه الهبات ملابس وحبوبا وأموالاً نقدية في بعض الأحيان[٤] .

---

(١) السعدي : مصدر سابق ، ص٢٣٣.

(٢) السيوطي :كتاب التحدث بنعمة الله ، ص١٥٨.

(٣) محمود كعت : مصدر سابق ، ص١١٢،١١١.

(٤) عبد القادر زبادية ، مرجع سابق ، ص١٢٩.

وهكذا كان لفقهاء المالكية دور كبير في الحياة الاجتماعية لدي مجتمع السودان الغربي كله، مما مهد الطريق لهؤلاء الفقهاء لأخذ مكانة كبري أخري في الحياة الثقافية لدي سكان تلك البلاد .